

والافتنان فيها ويعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة، فإذا وقف أحدهم بين الماطين لحصول تنافر أو تضامن أو تظالم أو تشاجر فأحسن الاقتضاب عند البداهة وأنجع في الإسهاب وقت الإطالة أو اعتلى ذروة منبر فتصرف في دروب من تحسين القول وتلييته داعياً إلى طاعة أو مستصلحاً لرعية أو غير ذلك مما تدعو الحاجة كان ذلك أبلغ عندهم من إنفاق مال عظيم وتجهيز جيش كثير، وكانوا يأنفون من الاشتهار بغرض الشعر ويعده ملوكهم دناءة، وقد كان لامرئ القيس في الجاهلية من أبيه حجر بن عمرو حين تعاطى قول الشعر فنهاه عنه وقتاً بعد وقتاً وما لا بعد مال أخرجه إلى أن مرّ بقتله وقصته مشهورة، وهذا واحد.

والثاني أنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة وتوصلوا به إلى السوق كما توصلوا به إلى العلية وتعرضوا لأعراض الناس فوصفوا اللثيم عند الطمع فيه بصفة الكريم والكريم عند تأخر صلته بصفة اللثيم، حتى قيل : الشعر أدنى مروة السرى وأسرى مروة الدنيا فهذا الباب أمره ظاهر.

وإذا كان شرف الصانع بمقدار شرف صناعته وكان النظم متأخراً عن رتبة النثر وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلفاً عن غاية البلوغ، وبما يدل على أن النثر أشرف من النظم أن الإعجاز من الله تعالى بحده والتحدى من الرسول عليه السلام وقع فيه دون النظم يكشف ذلك أن معجزات الأنبياء في أوقاتهم كانت من جنس ما كانت أمهم يولعون به في حينهم ويغلب على طبائعهم، وبأشرف ذلك الجنس. وعلى ذلك كانت معجزة موسى عليه السلام فإنها ظهرت عليه وزمنه من السحر والسحرة فصارت من ذلك الجنس وبأشرفه، وكذلك كان حال عيسى عليه السلام لأن زمنه كان زمن الطب فكانت معجزته هي إحياء الموتى من ذلك الجنس.

ولما كان زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة في البيان صلى الله موعظته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه فتحدثهم بالقرآن كلاماً منشوراً لا شعراً منظوماً، ولقد قال الله عز وجل في تمجيد النبي ﷺ ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وقال أيضاً ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ولما كان الأمر على ما بيناه وجب أن يكون النثر أرفع شأنًا وأملاكاً وبناء من النظم، وأن يكون مزاوله كذلك اعتباراً بسائر الصناعات ويمزاوليها.